

رحلات ابن بطوطة و غرائب مشاهداته - نموذج لفكر أنثروبولوجي إسلامي

الأستاذ العربي بوحسون

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان

الملخص:

لم يبرز الفكر الأنثروبولوجي الغربي في أمريكا وأوروبا، ويتأسس على قواعد علمية في مطلع القرن 20، إلا بفضل دراسات وإسهامات كبار الرحالة المسلمين الذين استطاعوا من خلال مغامراتهم وأسفارهم أن يسجلوا أنفسهم ضمن الأوائل المؤسسين للفكر الأنثروبولوجي الإسلامي. حيث تركوا تراثا علميا تنباهى به الأمة العربية والإسلامية اليوم في جميع المحافل العلمية الكبرى. ولا يسعنا المقام هنا لذكرهم جميعا نظرا لاختلاف ميادين أبحاثهم وتنوعها كالجغرافيا والفلسفة والدين والتاريخ وعلم الفلك والسياسة، والاجتماع والأنثروبولوجيا. إذ ما يهمنا في هذا البحث هو فرز أهم المحطات الأنثروبولوجية من خلال أبحاثهم. ولعلها متنوعة مثل دراسات البيروني عن الهند وابن خلدون عن المغرب، ورحلات ابن بطوطة، وجلها دراسات رائدة في الفكر الأنثروبولوجي. غير أن اختيارنا لهذا الأخير ليس من باب الترتيب أو التمييز، بل أننا نعتقد أن تنوع وكثرة أسفاره ورحلاته وامتدادها الزمني والجغرافي التي قام بها، من طنجة مرورا بعدة أقطار عربية وأوروبية وآسيوية إلى أن عاد إلى المغرب، تمثل من أعظم الرحلات في تاريخ البلاد العربية والإسلامية على الإطلاق، التي تضمنت الجذور الأولى للفكر الأنثروبولوجي.

ولما لهذا العلامة من فضائل ومآثر في ازدهار هذا العلم، ارتأينا أن نقتصر على دراسة أسفاره، ورحلاته المتعددة مبينا من خلالها غرائب مشاهداته وأوصافه للمواقع والثقافات التي لاحظها. وهي معالم أنثروبولوجية بامتياز اعتمد فيها على المنهج الأنثروبولوجي من جهة، والتمهيد لنشأة علم لطالما اعتبره الغرب من إنتاجهم من جهة ثانية. لاسيما وأن تاريخ الفكر البشري أثبت دور القطر العربي الإسلامي في غرس جذور الفكر الأنثروبولوجي منذ القرن 14 وقبله.

لقد أصبح الدارس والباحث الأنثروبولوجي الحديث مدينا لهذا الفكر، ويعتبره مرجعا قويا في كتاباته سواء من باب المقارنة، أو من باب تاريخ نشأة الأنثروبولوجيا. فمثلا رغب الأوروبيون في استكشاف الأرض والدنيا من حولهم، فإن نفس النزعة كانت موجودة لدى العرب، وكان لهم الحق مثلهم في الاطلاع على أحوال الآخرين من سكان المعمورة. أو كما قال الأمريكي كارلتون كوون carleton coon: "ليس الأوروبيون والأمريكيون هم وحدهم الذين يحتاجون إلى أن يعرفوا عن غيرهم من الشعوب، فعبء العالم ليس ملقى على عاتقهم وحدهم. إن شعوب العالم الأخرى في حاجة أيضا إلى أن تعرف الحقائق عن الأوروبيين والأمريكيين، فكل منا في حاجة إلى أن يعرف الحقائق عن غيره"¹.

إن من أهم الفوائد التي قدمها الرحالة والمستكشفين والمغامرين للبشرية تلك المواقع والطبائع والسلوكات وأساليب العيش التي ظلت مجهولة لفترة طويلة من الزمن. كما أن المجتمعات البدائية والقديمة والغريبة والبعيدة ظلت تعاني العزلة وبعيدة عن التطورات التي عرفتتها المجتمعات الأكثر تطورا. فلولا الرحالة والمستكشفون للقارات والمجتمعات غير المعروفة لدينا، لبقى العالم مجهولا لدى الكثير من الشعوب إلى اليوم. كما أن دراسة أدب الرحلات، يذكرنا بإنجازات عظيمة حققها الرحالة والجغرافيون

العرب والمسلمون على مدار عشرات القرون من الزمن. إلا أن دراسة الرحلات تأخذ عدة صور وأبعاد مختلفة. فعندما نتحدث في الإثنوغرافيا عن الرحلة فإن أنماط من الوعي بالعالم، بالشعوب والحضارات ينهض هناك. فنحن في صلب الحديث حول المسافات والأبعاد والحدود والمعالم لإنسان يتأمل عالمه ويتفحص موطئ قدميه على الكوكب، وسعى جاهدا لإدراك معنى وجوده من خلال ما يدركه من ثراء الوجود المختلف لبقية أبناء السلالة البشرية، سواء في مسائل الغيب أو في مواضع الوجود.² ويعد ابن بطوطة من هذه الزاوية من الأسماء اللامعة عبر التاريخ، ومن كبار الرحالة والجغرافيين، ونعده في دراستنا هذه من كبار أنثروبولوجيين العرب والمسلمين.

-نبذة عن حياته: (1304-1377)

"ابن بطوطة" هو الاسم الذي اشتهر به الرحالة العربي "محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي"، ولقبه "شمس الدين" وكنيته "أبو عبد الله"، كما لقب باسم "الطنجي"، نسبة إلى نشأته ونشأة أجداده بمدينة طنجة في المغرب، حيث ولد بها سنة 703هـ، ولم يغادر بلاده إلا عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره، حيث بدأ رحلته الشهيرة. وعرف عن ابن بطوطة صفات كثيرة حميدة، فكان رجلا تقيا اشتهر بأعمال البر والإحسان على الفقراء والمساكين. زار الكعبة المشرفة، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وحج في حياته أربع مرات. فقد كان يعمل بالقضاء، واشتغل قاضيا يحكم بين الناس في بعض البلاد التي زارها، وأمضى بها فترة طويلة، بالإضافة لذلك، فقد كانت حلاوة حديثه، وما يحكيه من غرائب وطرائف تجعل الملوك والأمراء في البلاد المختلفة يعجبون به، ويتسابقون لاستضافته، وبذلك كان يجد في كل بلد ينزل به مكانا يأوي إليه، ويرحب بقدمه.³

-خُرْجَة ابن بطوطة:

غادر ابن بطوطة موطنه في مدينة طنجة المغربية وعمره حوالي 22 سنة وخاض رحلة طويلة استغرقت نحو 23 سنة، وكانت رحلة تشتمل على زيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة.. لكن عشقه للسفر والتجوال واستكشاف الأراضي الجديدة دفعه لخوض رحلة أخرى طويلة قطعت مسافة 75000 ميل، زار خلالها شمال وشرق القارة الإفريقية، والشرق الأوسط وروسيا والهند والصين، وجنوب شرق آسيا. وخلال تلك الرحلة الطويلة وصف ابن بطوطة كثير من المشاهدات العجيبة، والغريبة. وعندما رجع إلى بلده كان عمره 45 عاماً، وقضى الأعوام الثلاثين التالية من حياته في كتابة أحداث ومغامرات رحلته المثيرة، التي جمعها في كتابه المشهور "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المشهور بـ" رحلة ابن بطوطة". لا يسعنا المقام لذكر جميع تلك المشاهدات، بل سنقتصر على بعضها التي تعتبر حقاً مثيرة وغريبة، وتمثل فوائد أساسية في الفكر الأنثروبولوجي.

-العمل الاثنوغرافي والأنثروبولوجي لابن بطوطة:

خاض غمار رحلة حافلة بالمغامرات والأخطار والعجائب، حصل فيها على معرفة لم يكن يخطط لها من قبل، وكل ذلك بواسطة الاحتكاك بثقافات متباينة، ولغات عويصة، وعادات مغايرة، وتقاليد لم يعتدّها. فتعرّف على المزيد، وانفتحت شهيته لمعرفة الأكثر من عادات الناس وكيفية عيشهم، تمتع بها وازدادت صقلاً مع التنقل والاحتكاك بالثقافات الأخرى، فكان بذلك أنثروبولوجياً من الطراز الأول. فقد عاين أموراً عجيبة في الأسكندرية من أخلاق الناس وأشكالهم، وعمامة القاضي، التي بلغت حجم نصف المحراب، ومعاصر السكر في مدينة المنلوي المصرية، والآثار الفرعونية في أخميم، التي قال عنها: "وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشأن بما البراء، المعروف باسمه، وهو مبني بالحجارة في

داخله نقوش وكتابات الأوائل لا تفهم في هذا العهد". ويصف الأهرام، وبالطبع لم يكن يتصور فك أسرار اللغة الهيروغليزية ولا هندسة البناء. ويضيف قائلاً: "والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى، كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها". وأما أهل مكة المكرمة فوصفهم بأنهم لا يأكلون إلا مرة واحدة في اليوم، بعد العصر، ولذلك يقول: "صحت أبدانهم وقلت فيهم العاهات". وعندما مر بمقاديشو رأى "الواحد من أهل مقاديشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة"⁴. لقد تمتع ابن بطوطة بأسفاره واعتبرها جزءاً من السياحة العلمية والاستكشاف.

-السياحة جزء من العمل الأنثروبولوجي:

كان ابن بطوطة ذا معرفة بالقرآن الكريم، مما ساعده على توسعة تفكيره في المخلوقات، حيث كان كثير السؤال، ومحباً للاطلاع عن كل شيء، فهو عندما قابل والد إمبراطور القسطنطينية، التي كانت تمثل الكنيسة الشرقية، طلب منه دخول الكنيسة لرؤيتها فلم يسمح له، وهو يدور المغارات، بحثاً عن الصالحين، وهو يسأل عن كل شيء فيتعرف على "الكليجا" و"قمر الدين"، المصنوع من الشمس، والذين يرقصون في النار، وداء الفيلة عند الأفارقة، وحرقت الزوجة مع زوجها المتوفى، وهي على قيد الحياة في الهند، واستعمال الورق كعملة (نقود) في الصين، بدلاً من المعدن والفحم الحجري والسجاد الصيني الفاخر وهكذا. إن هذه الروح المحبة للسياحة والتي زكاها القرآن للرجال والنساء على حد سواء، طبقها ابن بطوطة فكان يسافر ويتزوج حيثما يمضي بدون أي حرج، وحينما تزوج في جزر المالديف وصفهن بأنهن من خير الزوجات اللواتي اجتمع بهن في حياته، وكانت زوجاته يمضين معه سائحات في رحلة اكتشاف المعمورة، حتى مع ظروف الحمل وموت بعض بناته، أحياناً، في هذه الرحلة العجيبة التي لم

يسبقه إليها أحد، بمن فيهم ماركو باولو. ولكن الأبحاث الحديثة بدأت تعترف بهذا السبق الهام للمسلمين⁵. لقد تعلم الأنثروبولوجيون الغربيون في مطلع القرن 20 عدة تجارب أنثروبولوجية من العرب، فقد رافقت بعض الزوجات أزواجهن في البحوث الأنثروبولوجية الميدانية، وهذا ما لاحظناه في دراسة تشارلز غبريال سليجمان في غينيا الجديدة عام 1904، عندما تزوج في نفس السنة ب براندا زارا سالامان التي شاركتها في جميع أعماله الاثنوغرافية على الشعوب النيلية في السودان خلال أعوام 1909 إلى 1922. فبينما ركز هو على الأنثروبولوجيا الطبيعية، وعلى تصنيف النماذج العرقية، والتاريخ، وأنثروبولوجيا ما قبل التاريخ، ركزت أبحاث زوجته على القرابة والتنظيم الاجتماعي⁶.

-انتقادات وإنكار:

سببى العلماء مدينون لهؤلاء الرحالة والجغرافيون، فمند القدم عشق العرب الرحلات وأبدعوا في وصف الأقطار والشعوب، وكان من أبرز هؤلاء نذكر على سبيل المثال الشريف الإدريسي (1100-1166) من كبار الجغرافيين العرب والمسلمين. ولكن بالرغم من انجازاته الكبيرة، وفي مجال الجغرافيا إلا أنه وللأسف الشديد لاقى من الغرب جحودا كبيرا، حيث وباستثناء مؤلفات بعض المستشرقين المنصفين لا نجد اعترافا كافيا بفضله في المراجع والموسوعات الغربية الكبيرة⁷. نفس الإنكار لاقاه ابن بطوطة من بعض الكتابات المشككة في نزاهة رحلته والأخبار. ويرجعها البعض إلى الهفوات الجغرافية والمبالغات التي ظهرت في سياق رحلته سواء إلى الشرق أو إلى السودان الغربي، حيث تعرض إلى النقد وأحيانا إلى التجريح. وكان من هؤلاء المشككين ابن خلدون إذ يقول: "أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يُعرف بابن بطوطة، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو

السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر تُدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود، يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به، ويُصب أمامه في ذلك الحقل منجنوقات... ترمى بها شكاير الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل إيوانه. وأمثال هذه الحكايات، فتناجي الناس بتكذيبه، ولقيت يومئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه. فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول؛ بما أنك لم تره، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن. وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه، ومكث في السجن سنين رُبِّي فيها ابنه في ذلك المجلس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها، فقال له أبوه: هذا لحم الغنم. فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها. فيقول: يا أبت، تراها مثل الفأر؟ فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر! وكذا في لحم الإبل والبقر؛ إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر، ولهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب⁸ لقد شكك ابن خلدون فيما رواه ابن بطوطة من عادات الشعوب وتقاليدهم، وربما كان السبب في ذلك أنه لم يكن هناك مَنْ يتحدث عن تلك العادات وتقاليدهم، فعندما سمعوا ذلك كان الأمر عندهم أشبه بالخيال. لكن هذا الشك والإنكار سرعان ما أزيل بفضل بحوث العلماء التي أكدت كل ما ذكره ابن بطوطة عن الهند؛ مما يدلُّ على أن ابن بطوطة كان أميناً في رحلته، وقد امتاز عن غيره من

الرحّالين السابقين أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أَلَمَّ بها.⁹ نستطيع القول أن نقد ابن خلدون لابن بطوطة والذي عاصره، قد فتح الشهية للذين يكون العداء للمسلمين والعرب، ويرمونهم بالسطحية والخيال في دراساتهم، وينكرون عليهم تفوقهم. هذا بالرغم من أن ابن خلدون نفسه دخل الاثنولوجيا عن طريق ما كتبه عن تاريخ العرب والمسلمين، وجغرافية المغرب العربي، ولا يمكن فهم نظرياته في التطور إلا بالعودة إلى هذا التاريخ.¹⁰ وهو أكيد بتشكيكه في روايات ابن بطوطة، قد أرسى معالم الفكر الأنثروبولوجي التي تعتمد على المعائنات والمشاهدات الشخصية.

—مواقف متضاربة:

هناك مواقف مختلفة حول الفكر الأنثروبولوجي العربي والإسلامي، حيث رأى البعض أن المفكرين العرب لهم إسهامات كبيرة في تأسيس الفكر الأنثروبولوجي من أمثال البيروني، وابن بطوطة، وابن خلدون، ولاسيما هذا الأخير الذي اعتبر في نظر الحبابي مؤسس علم الأجناس البشرية أو علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)¹¹. فقد نال من كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدّمته الرئيسة التي عنوانها بـ " في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والمصانع والعلوم، وما إلى ذلك من العلل والأسباب ". حيث تعتبر سجلا للحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، ولا سيّما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كلّ ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكّلت موضوعات هذه المقدّمة — فيما بعد — اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية.¹² بينما يرى فريق آخر أنه بالرغم من إسهامات العرب والمسلمين في تأسيس هذا الفكر، فإنهم لم يتمكنوا من جعله علما مستقلا وقائما بذاته، كما حدث مع علماء الغرب في القرنين 19-20، وهذا ما جاء في رأي الباحث أحمد زغب من خلال كتابه مبادئ

الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، إنّ كون الأنثروبولوجيا كعلم له خصوصيته وطرائقه، غربي المنشأ والتطور. حيث رأى أن الغرب (الأوروبيين) هم أسبق من العرب في دراسة الثقافات الأخرى، دراسة إثنوغرافية وأنثروبولوجية، حيث استخدموا الوصف والمقارنة، ووضعوا المبادئ، والأسس المنهجية للبحث والدراسة في هذا المجال.¹³ غير أن هناك من الباحثين العرب من يرى أن العرب أسبق من الغرب في بدايات هذا العلم. جنينيا. من ذلك على سبيل المثال الجهود التي قام بها دون أن يعلم أنها تدخل في هذا المجال، رحلات واستكشافات أبو سعيد الأصبغي (121 هـ - 216 هـ / 740 - 831 م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر. وهو متخفّ في هيئة أعرابي، أبحاثه وكتاباتة معروفة في الثقافة العربية بـ "نوادير الأصبغي" .. وإن كانت تخلو من التحليل العلمي، ولكنها مرويّات في شكل نوادر، وطرائف لغوية، واجتماعية خبرها الأصبغي، وعاشها رحالة بين أهلها تارات متنكرا، وتارات أخرى معرّفاً بنفسه.¹⁴ إن هذا العمل هو ذاته الأنثروبولوجيا كما أنتجها الغرب من دراسته لمجتمعاتنا، ومجتمعات أخرى؛ وأن التراث العظيم الذي جمعه الأصبغي الذي كان لا يعلم أنه يقوم بأول عمل أنثروبولوجي ميداني في تاريخ العرب والإنسانية جمعاء. ولقد كانت لرحلات ابن بطوطة، وكتاباتة خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكياتهم وقيمهم وتقاليدهم. إن هذا المنهج استخدمه أنثروبولوجيون أوروبيون لدراسة مجتمعات بدائية، في بداية القرن 20 أمثال مالفينوفسكي، وفراسوا بواس خلال سنتي 1922 و1923.

إنّ الفلاسفة والمفكرين العرب أسهموا بفاعلية - خلال العصور الوسطى - في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيما التنوع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى، مستعملين أدوات الملاحظة، والجمع والمشاركة والتمحيص.. إلخ. ولكن مع ذلك يصر البعض على أن

هذا العلم غربي أساساً، حيث انطلق من نظرة الغرب إلى الإنسان، والكون، والمصير من جهة، ومن نظرة الغربيين إلى الآخر المختلف من جهة أخرى.

لكن المنطلقات الفكرية للأنثروبولوجيا لدى الغرب كانت عرضة لانتقادات شديدة ليس فقط من أنثروبولوجيين مسلمين، بل حتى من العلماء الغربيين النزيهيين الذين انتقدوا الخطابات العنصرية حول السكان الذين كانوا يعيشون في فضاءات بدائية. يرجع الباحث أحمد زغب عدم وجود أنثروبولوجيا عربية إسلامية ماضيا وحاضرا إلى ما يلي:

1- عدم تقبل فكرة التطور الحيوي عند الإنسان التي نادى بها داروين وغيره، وهي الفكرة التي تتعارض مع الفكر الديني، وتفسيراته التي تؤكد أن الإنسان مخلوق من عمل الله، وليس نتاج حلقة تطورية ذات أصل حيواني.

2- ارتباط الأنثروبولوجيا بالاستعمار الغربي، إذ استغل المستعمر المعلومات التي جاء بها الباحثون عن المجتمعات البدائية قصد معرفة بنيتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، مما يسهل التحكم فيها، والسيطرة عليها.¹⁵

لكن الدراسات الأنثروبولوجية الغربية، جاءت محملة بإيديولوجيات معينة، ومواقف تجاه الآخر، والشعوب المختلفة عن الغرب، حيث تبين ذلك من أسئلتهم، حيث قالوا هل ما سنكتشفه ينتمي إلى الإنسانية؟ وهل المتوحش (البدائي) له روح؟ وهل هم معنيين بالخطيئة الأصلية¹⁶. فكانت دراسات عنصرية وغير موضوعية، حيث أن مختلف الدراسات الغربية التي جرت حول "الآخر" في مختلف الأزمنة كان يغلب عليها الطابع الوصفي والإخباري عن الشعوب، امتزج فيها الصواب بالخطأ ولا سيما عندما استخدمت فيها طرق وأساليب معينة لجمع المعلومات، كالاعتماد على الوثائق والمخبرين والرحالة غير

النزهاء، هذا ما أوقع البعض في بناء نظريات وتعميمات غير صحيحة على الآخر (المبحوث)، كما حدث ل ماك لينان Mc lennan في كتاباته عن الزواج المتعدد من قبل المرأة، والزواج الأحادي، وكذا نظام الأمومة المتبع عند معظم الشعوب البدائية.¹⁷ نجد هذا أيضا في انتقادات ليفي ستروس في كتابه مدارات حزينة لجل الأنثروبولوجيين الغربيين الذين جعلوا من علمهم علما عنصريا في نظرهم للشعوب المتخلفة والبدائية. فقد اعترف بقدرة هذه الشعوب على إنتاج الثقافات المادية وغير المادية واعتبرها مكملية للتراث البشري وتستحق الاعتراف لأنها ليست ثقافات طفلة ولا هي بسيطة، بل هي اعقد من ثقافة الغرب كما يتصورون. حيث قال: في كتابه "المدارات الحزينة" "نحن لم ندخل على الحضارات القديمة سوى بعض التحسينات"، كما أنه لم يعتبر الحضارة الغربية نموذجا أو مثالا للتقدم، وما يؤكد تصوره هذا هو أنه لم يقدم بصورة مطلقة النتائج التي حققها الحضارة الغربية خاصة عندما وصفها بأنها لازالت جارية.¹⁸ والحضارة الغربية واحدة منها لأنها اعتمدت في تطورها ووصولها إلى هذا المستوى على الحضارات التي سبقتها. كما أن الوعي بالآخر وبتنوع المعتقدات والمؤسسات وتغييرها بتغير الأمكنة والأزمنة أدى إلى استخلاص مقاربات منهجية في تفسير المجتمعات، التي لم تعد محكومة بقوانين عامة وثابتة بل باصطلاحات تتبدل من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر.¹⁹

يقول عيسى الشماس في كتابه "مدخل إلى علم الإنسان .. الأنثروبولوجيا" الصادر عن اتحاد الكتاب العرب بسوريا من الضروري العمل على فحص التراث العربي الإسلامي، بتنوعه وغزارته، ودراسته دراسة متأنية ومتعمقة، ولا سيما تلك الأعمال ذات الصلة المباشرة بالأنثروبولوجيا، من أمثال: مؤلفات أخوان الصفا، وكتاب "الحيوان" للجاحظ، وكتابات أحمد ابن مسكويه الخاصة بآرائه عن النشوء، وتحول الأحياء بعضها من بعض، وغيرها كثير.²⁰

ابن بطوطة” الذي برزت خصائص الكتابة الأنثروبولوجية في مؤلفه، وذلك من خلال وصفه لحياة أهل السودان اليومية، وأنماط سلوكياتهم وتقاليدهم وقيمهم ومما قاله في أهل السودان: “فمن أفعالهم قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحد في شئ منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه.²¹ فإذا كانت من مهام الأنثروبولوجيا البحث عن الغريب والبعيد والمختلف، والعجائب وذلك في إطار جو حافل بالمغامرات، فهذا ما فعله ابن بطوطة في رحلته الطويلة التي اكتشف فيها الأقاليم والثقافات والأجناس البشرية المختلفة. ومن أهم مشاهداته المليئة بالغرائب نذكر ما يلي: ²²

–المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل: حيث خلال رحلته زار جبل قاسيون، و هو جبل يبلغ ارتفاعه حوالي 1200م، ويذكر مؤرخو دمشق عددا وافرا من الأنبياء والشهداء المدفونين بين منحدراته وبين قاسيون، ولهذا فهو يعتبر جبلا مباركا، ويوجد بهذا الجبل الغار الذي ولد به سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث وصفه ابن بطوطة أثناء رحلته. أين شاهد مغارة تسمى مغارة الدم، وعرف أن فوق تلك المغارة منطقة بالجبل كان عليها دم هابيل بن آدم عليه السلام، وهي الموضع 79 الذي قتله أخوه قابيل به، ثم ألقى بجثته في المغارة، وذكر كذلك أنه في آخر جبل قاسيون مكان الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله في قوله تعالى: "وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين" سورة المؤمنون آية-50.

—**حيوان الكركدن العجيب**: شاهده عندما وصل إلى الهند وصفه بأنه حيوان ضخم ونادر الوجود، عظيم الجثة، أسود اللون، له رأس ضخم يفوق حجمه حجم بدنه، وهو دون الفيل لكن رأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وله قرن طويل يبرز من بين عينيه.

—**السلطان العادل جدا**: من أغرب ما رأى ابن بطوطة من طبائع وعادات بلاد الهند، ما اتصف به السلطان "شمس الدين للمش" الذي كان حاكما لمدينة دهلي (مقاطعة دلهي اليوم)، حيث اشتهر بنزعه القوية للعدل وبغضه للظلم، وأمر السلطان أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا ليعلن عن نفسه، وكان الهنود في ذلك الوقت يلبسون ثيابا بيضاء. فكان متى قعد إلى الناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ دعاه إليه لينظر في مظلومه، وينصفه ممن ظلمه، ورأى شمس الدين أن بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل، وأراد تعجيل إنصافهم، فجعل على باب قصره أسدين مصنوعين من الرخام، وموضوعين على برجين هنالك، وفي عنقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير. فكان المظلوم يأتي ليلا فيحرك الجرس، فيسمعه السلطان وينظر في أمره في الحال وينصفه.

—**الجزر العجيبة**: وصفها بأنها عجيبة الشكل، وتضم نحو ألفي جزيرة صغيرة، أهلها مسلمون، والناس في تلك الجزر الخالية من الزراعة، يعتمدون في طعامهم على صيد الأسماك، كما وصف طرق طهييه، حيث يقطع إلى أربع قطع، ويطبخونه طبخا خفيفا، ثم يعلقونه للدخان، وحتى صار يابساً أكلوه. ويصدرون هذا النوع من السمك إلى الهند والصين واليمن.

-اعترافات من الغرب:

لقي ابن بطوطة انتقادات، واستخفاف برواياته و مشاهداته التي دونها في كتابه المشهور تحفة النظار، غير أن ذلك لم يؤثر فيه لأنه كان صادقا في رحلاته وعالمًا سلك طرق علمية في تسجيلاته. ولهذا اعترف به علماء الغرب ولقي كثير من الثناء أرجعت له الاعتبار بعد الشكوك التي دارت حول إنجازاته. فقد قال المستشرق ريجيش بلاشير عن كتابه. لهذا الكتاب أهمية كبيرة في التعرف على العالم الإسلامي في ق14م... فيه معلومات تاريخية دقيقة ومفيدة، لاسيما تلك التي لا تحصى والمتعلقة بعقائد وعادات وأخلاق السكان. أما المستشرق الروسي كراتشكوفسكي يقول عنه أنه رجل علم، ولم يكن نقالة اعتمد على كتب الغير.... كما يعد منافسا خطيرا للرحالة الإيطالي ماركو بولو. ومن جهة أخرى نوه به الباحث الياباني حين يقول، من العسير القول بأن جميع حكاياته عن الصين هي من نسج الخيال وحده.... عمله لا يخلو أحيانا من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين.

-الخاتمة:

يعتبر القرن14 في تاريخ العرب والمسلمين حافلا بالإنجازات الكبرى، حيث برز فيه ابن بطوطة كأحد أعمدة وكبار الرحالين في هذه الفترة، بالرغم من الظروف التي عاش فيها الخالية من وسائل النقل. ولكنه استطاع أن يقطع 120 ألف كلم على ظهر الجمال والبغال، فطاف مختلف الأماكن في المعمورة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. لقد برز من خلال كتابه "تحفة النظار" كأحد كبار الأنثروبولوجيين، استخدم طرق الوصف والمقارنة والمعاينة الشخصية، هذا بالرغم من الانتقادات التي تعرض لها في عصره من عامة المؤرخين والجغرافيين المسلمين الذين عاصروه أو جاءوا بعده، حيث نظروا إليه نظرة استخفاف شديد لا يستحقها، وقد اعتبرت رحلته وربما حتى الآن عند الأغلبية الساحقة من

المثقفين والمتعلمين المسلمين رحلة مغامرات وتسلية فقط لا غير. على خلاف ذلك تمكن ابن بطوطة من إمداد العالم الغربي برصيد معرفي في التاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا، حيث خفف عنهم الكثير من متاعب البحث الميداني، خاصة عندما اكتشفوا أنه كان صادقا وأميناً في رحلاته. فالكثير من الغربيين والمستشرقين اعترفوا بمجهوده ودقة ملاحظاته وتسجيلاته، مما جعلهم يصنفونه ضمن كبار المنظرين الأنثروبولوجيين بفضل طرائقه في جمع المعلومات عن الشعوب التي زارها ومكث فيها. حيث ترجم الألمان في سنة 1808م الجزء الخاص بمالي من موجز للرحلة كان قد وضعه شخص اسمه البيلوني في القرن السابع عشر الميلادي، وقد سمي الألمان هذا الجزء ب"الرحلة الإريقية". كما أن الرحالة هنريش بارث (BARTH) أطلع عليه قبل أن يبدأ رحلته المشهورة إلى السودان الغربي في سنة 1850م، وأنه استفاد من وصف ابن بطوطة الدقيق للطريق الصحراوي الرابط بين شمال إفريقيا وغربها. بينما استفاد الفرنسيون من معلوماتها أكثر من غيرهم، عندما عثروا على مخطوطة كاملة لكتابه تحفة النظار في إحدى مكتبات الجزائر عندما احتلوها سنة 1830م، وقاموا بترجمته في عام 1858م، ثم إخراج أول طبعة كاملة للرحلة في أربعة أجزاء، أعطتهم صورة واضحة عن المناطق الصحراوية جنوب المغرب، وعن منطقتي نهر النيجر وتمبكتو التي احتلوها في نهاية القرن التاسع عشر. 23 وستظل هذه الانتقادات تارة، والاعترافات تارة أخرى، من أهم الطرق التي تسمح لنا بالمزيد من البحث والتأكد من أجل اكتشاف جذور الفكر الأنثروبولوجي العربي، ولا سيما عند ابن بطوطة ومن عاصره من العلماء.

المصادر و المراجع:

- 1- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1982.
- 2- أبو الروس أيمن، الكشف الجغرافية، القصص المثيرة لاكتشاف القارات والأراضي المجهولة، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، 2003.
- 3- بغورة الزواوي، المنهج النبوي، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2001.
- 4- بناني عثمان، السودان الغربي عند ابن بطوطة وابن خلدون العدد 269 ماي-أبريل 1988 على الموقع: <http://habous.gov.ma/daouet-elhak/item/6941>
- 5- بونت بيار، إيزار ميشال، معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد" 2006.
- 6- الجبائي علي عبد الله، علم خصائص الشعوب، علم الأقوام، التلويين، دمشق، 2007.
- 7- جليي خالص، رحلة ابن بطوطة على الموقع: <http://www.maghress.com/>
- 8- الخوري فؤاد إسحاق، مذاهب الأنثروبولوجيا وعبقورية ابن خلدون، دار الساقى، ط1، بيروت، لبنان، 1992.
- 9- رحاب مختار، نموذج من إسهامات محمود شكري الألوسي في مجال الدراسات الأنثروبولوجية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فرحات عباس، سطيف، العدد 1- 2004.
- 10- السرجاني راغب، ابن بطوطة شيخ الرحالين، على الموقع: [http:// islamstory.com/ar/](http://islamstory.com/ar/)
- 11- الشماس عيسى، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، من منشورات موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الأنترنت: www.awu.dam.org دمشق، 2004.
- 12- الشيخ ليث عبد الحسين العتايي، الأنثروبولوجيا الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، العدد 148، لبنان، 2013.

- 13- لومبار جاك، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.
- 14- فهم حسين، قصة الأنثروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1986.
- 15- مودن عبد الرحيم، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دراسات في الأدب الجغرافي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2006.
- 16- نايت بلقاسم مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، ج2، دار الأمة، الجزائر، 2007.
- 17- François Laplantine. L'Anthropologie. Ed .Payot. Paris, 2001.